مهرجان العهر السياسي

د. محمد عبد العزيز ربيع

جاءت زيارة نتنياهو لواشنطن قبل بضعة أيام لتعيد إحياء "مهرجان العهر السياسي" في مدينة واشنطن، وفي مبنى الكونجرس بالذات، وهو إحتفال يتكرر كلما زار واشنطن إسرائيلي عنصري أصيل. قبل عدة أسابيع، وأثناء حديث عادي حول ما يجري في أمريكا مع الصديق كلوفيس مقصود، قال لي "أنا محتار في اختيار موضوع لمقالي الأسبوعي". قلت له أكتب عن الإمبراطورية الإسرائيلية.. أعظم إمبراطورية في التاريخ وأكثرها عنفا وتفرقة وظلما. قال كلوفيس لكن الدولة العظمى الوحيدة التي يعترف بها العالم هي الولايات المتحدة الأمريكية. قلت هذا كلام صحيح، لكنه رأي خاطئ يُعبر عن تخيلات من يعتقد بأن أمريكا لا تزال دولة مستقلة ذات سيادة، وأن لديها القدرة على اتخاذ قرارات تخدم مصالحها الوطنية بغض النظر عن مصالح إسرائيل. وفي الواقع، كتب الصحفي الأمريكي المعروف كريس هدجنز قبل سنتين تقريبا مقالا تحت عنوان "آن الأوان لإعلان الاستقلال عن إسرائيل"، وهو إعلان لم يجرؤ أي رئيس أمريكي على إصداره، بل قام كل رئيس تابع بتعميق تبعية أمريكا لذلك الكيان.

حين خطب نتنياهو في الكونجرس قبل أيام صفق له أعضاء الكونجرس 59 مرة، ووقفوا إجلالا له 29 مرة، علما بأنهم وقفوا لأوباما في آخر خطاب له 26 مرة فقط. من ناحية أخرى، حين خطب أوباما وقف له الأعضاء الديمقراطيون، ولم تقف له غالبية الجمهوريين، أما بالنسبة لنتنياهو، فإن جميع أعضاء الكونجرس الديمقراطيين والجمهوريين وقفوا له صاغرين مهرجين. وهذا يعني أن أمريكا القديمة التي كان يعول البعض عليها ويعتقد بأنها قادرة على الضغط على إسرائيل انتهت وحلت محلها أمريكا جديدة تابعة لإسرائيل. إن استيلاء قوى الصهيونية العالمية على عناصر قوة أمريكا الحقيقية، وهي مراكز صنع القرار السياسي ورسم السياسات المالية وتصميم البرامج الإعلامية والثقافية والترفيهية، أدى إلى تحويل أمريكا إلى دولة تابعة لإسرائيل. إن على من يشكك في هذا القول أن يتذكر بريطانيا التي هيمنت على نصف سكان الكرة الأرضية لمدة 150 سنة تقريبا باستخدام "القوة الخشنة" أي القوة العسكرية، بينما تهيمن إسرائيل على أمريكا اليوم ومن خلالها على أوروبا أيضا باستخدام "القوة الناعمة" التي تقوم على المال والإعلام والثقافة والاقتصاد. لقد انتهى العصر الذي تحكمت أمريكا في مصيره ومصائر شعوبه، فيما عدا تلك الشعوب التي لا يزال حكامها يصرون على التبعية، إذ أصبحت أمريكا مجرد آلة عسكرية فتاكة، وقوة

اقتصادية في حالة تراجع، ومؤسسة سياسية بلا رؤية أو مبادئ. إن نجاح أمريكا في الاحتفاظ بكرسي العرش حتى اليوم يعود لثلاثة عوامل رئيسية: الأول، عدم وجود بديل لها، والثاني، تمسك أوروبا بها كزعيمة خوفا من روسيا والصين، والثالث، تصميم الصهيونية اليهودية على بقائها أداة تستخدمها لحماية إسرائيل وتحقيق مآربها المالية والإعلامية على الساحة الدولية.

إن من يريد أن يرشح نفسه لمجلس الشيوخ يحتاج اليوم لحوالي 30 مليون دولار لخوض معركة انتخابية تتوفر لها احتمالات نجاح قوية. وهذا يعني أن على السناتور الذي يريد إعادة ترشيخ نفسه أن يجمع كل أسبوع حوالي مئة آلف دولار لمدة 52 أسبوع سنويا، لمدة 6 سنوات دون كلل أو ملل، ودون توقف عند قيم أو مبادئ. أما رئيس الجمهورية فعليه أن يجمع حوالي بليون دولار لخوض معركة انتخابية تنافسية، فاوباما أنفق في عام 2008 حوالي 750 مليون دولار، وأنه من المتوقع أن ينفق حوالي بليون دولار في العام القادم. وهذا يعني أن الاحتياجات المالية لتمويل الحملات الانتخابية لا تترك لعضو كونجرس او رئيس وقتا للعناية بما يجب عليه العناية به - خدمة المواطنين ومصالح الوطن، كما أنها تفرض على كل مرشح أن يكون آذانا صاغية لما يقوله المتبرعون وعبدا مطيعا لكبار الأثرياء، ومنافقا على استعداد لتغيير مواقفه والتنازل عن مبادئه وكرامته في سبيل نيل رضا اللوبي الصهيوني ورجال الإعلام والمال.

كان من بين أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي في العقد الماضي عضو ديمقراطي اسمه "زلْ ميللر." كتب ميللر مقالا قبل عشرة سنوات يصف شعوره بعد كل جلسة مع رجال المال طلبا للتبرع لحملته الانتخابية، قال فيه "كنت أشعر دائما حين أخرج من تلك الغرفة أنني مومس "عاهرة" رخيصة بعد يوم حافل بالعمل". بعد قضاء فترة عضويته في مجلس الشيوخ انضم السناتور ميللر للوبي يجمع المال لزملاء سابقين له، مما جعله يتحول بين ليلة وضحاها إلى موظف يعمل لحساب "عاهرات" الكونجرس ويجلب لهن المزيد من الزبائن والمال، تلك العاهرات التي تحكم أمريكا وتملي إرادتها الظالمة الغاشمة على معظم دول العالم. قبل ثلاثة عقود، وصف الرئيس الأمريكي الأسبق جيرالد فورد العملية الانتخابية في أمريكا قائلا: "مرشحين بلا أفكار، يستخدمون مستشارين بلا قيم أو مبادئ، لإدارة حملات انتخابية بلا محتوى".

حين اجتمع اوباما مع نتنياهو في البيت الأبيض قام الأخير بالقاء محاضرة على الأول في بيته وتكلم بعنجهية مستهينا بالمضيف. وبدلا من الرد عليه بما يستحق وبما تمليه مصالح أمريكا ومكانة رئيسها، قام اوباما بالتراجع عما قاله بعد يومين فقط، إذ كرر مقولة بوش بأنه ليس من الممكن الرجوع إلى خطوط 1967. حين نادى أوباما بالتفاوض بدءا من خطوط 1967، لم يقدم جديدا، بل كرر ما قاله رؤساء أمريكا

السابقين بدءا بجونسون، كما أنه تناسى القضايا الأساسية الأخرى، المستوطنات والقدس واللاجئيين. إن غضب نتنياهو لم يكن بسبب ما قاله أوباما عن قضية الحدود، بل لأن أوباما لم يستشيره ولم يأخذ موافقته المسبقة. وحين نستعرض خطاب أوباما سوف نكتشف أنه قدم لنتنياهو أكثر بكثير مما كان يتوقع، إذ طالب الفلسطينيين بالعودة للمفاوضات، وقام في الوقت ذاته بوضع العراقيل أمام عملية التفاوض برفض مشاركة حماس في الحكومة الفلسطينية، وتحذير الفلسطينيين من مغبة الذهاب إلى الجمعية العمومية طلبا لاعتراف رسمي بدولة فلسطينية، وإعلان موقف جديد يخالف روح ونص الديمقراطية التي تتبجح بها أمريكا، إذ قال بأنه لن يسمح بنقد إسرائيل في المحافل الدولية.. لم يقل تهديد أمن إسرائيل أو حتى إدانتها. وفي الواقع، وكما كشفت المعلومات اللاحقة، جاءت إشارة أوباما لحدود 1967 بهدف تحميل الطرف الفلسطيني أولا مسئولية استمرار توقف المفاوضات، واقناع الأوروبيين ثانيا بعدم دعم طلب الفلسطينيين بالاعتراف بدولة فلسطينية مستقلة في حدود 1967 تكون القدس الشرقية عاصمتها.

في ضوء هذه الحقائق وغيرها، يمكن استخلاص النتائج التالية: أولا، إن العرب قادرون على أخذ زمام المبادرة والاهتمام بمصالحهم، وأنهم ليسوا بحاجة لمساعدة أمريكا أو حمايتها، وذلك كما أثبتت الثورات العربية في تونس ومصر. ثانيا، ان لاءات نتنياهو وموقف أمريكا وموت عملية السلام منذ زمن يعني أنه ليست هناك إمكانية لحل تفاوضي يتجاوب مع الحد الأدني لمطالب "المعتدلين" والمستسلمين من عرب وفلسطينيين. وثالثا، إن هناك حركة سياسة وإنسانية واسعة ومتنامية في دول أوروبا وأمريكا تعمل على سحب الشرعية من إسرائيل باعتبارها كيانا عنصريا يمارس التفرقة والاضطهاد.. إن هذه الحركة هي الخيار الوحيد أمام العرب عامة والفلسطينيين خاصة للضغط على إسرائيل وأمريكا واستعادة حقوقهم، ولقد آن الأوان لدعمها والانخراط الواعي في صفوفها.

د. محمد عبد العزيز ربيع www.yazour.com